العمارة الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني
- بين الطراز المحلي والتأثيرات العثمانية-

د. خيرة بن بلة*

مقدمة.

إن أول الملاحظات التي تجب الإشارة إليها هو أن التراث المعماري الديني الذي يعود إلى الفترة العثمانية بالجزائر يعتبر غير كامل من حيث العدد، ليس لأن الجزائر لم تكن تحتوي على عدد كاف من هذه العمائر ولكن لأن الفرنسيين هدموا أثناء استعمارهم للبلاد عددا هائلا من المساجد ذات الطراز القريب من الطراز العثماني، مثل جامع السيدة بمدينة الجزائر بحجة إعادة بناء هذه الأخيرة وتجميلها، وصاحب عملية الهدم هذه عملية أخرى أكثر جرما وخطورة وهي تحويل العديد من المساجد إلى كاتدرائيات بكل ما تحمله كلمة تحويل من معنى، فشمل بذلك التغيرات المعمارية العميقة لهذه المساجد مثل ما حصل لجامع كتشاوة الذي تغيرت كل ملامحه الأصلية والأصيلة في البناء.

وفي نفس الإطار يقول الأستاذ اندريه ريمون بأن حصيلة الاحتلال الفرنسي في الجزائر كانت دمارا أو تشويها لعدد من الجوامع الهامة التي نشأت خلال الفترة العثمانية وحسب المعلومات المتوفرة حتى الآن لا نستطيع الافتراض بأن النتاج العثماني ليس إلا جزءا من أصل مئات العمائر الدينية التي نشأت في الولايات العربية بين القرنين السادس عشر والثامن عشر.

لقد أثر اللون الفني والمعماري العثماني الذي دخل الجزائر في المظهر العام للمبنى وفي التخطيط وفي العناصر المعمارية والزخرفية. مع التأكيد على كون التقاليد السابقة للدخول العثماني إلى الجزائر لم تختف كليا بل امتزجت بهذه المظاهر الجديدة وظلت طوال ثلاثة قرون تعبر عن شخصيتها، فاستمر استعمال عناصر معمارية كانت مألوفة في العهد الإسلامي السابق طول فترة قيام الحكم العثماني بالجزائر.

ومن خلال دراسة ما تبقى من عمائر دينية بالجزائر من هذه الفترة تم التوصل إلى أن العمارة الدينية بالجزائر خضعت لطرازين استعملا خلال هذه الفترة وهما يتمثلان في الطراز المحلي والطراز العثماني الذي جاء به الأتراك. ويظهر ذلك بوضوح في عدة جوانب مثل: طريقة تسجيل تاريخ التأسيس ونظام التخطيط والعناصر المعمارية والزخرفية المستعملة.

* معهد الآثار - جامعة الجزائر٢

١. **النماذج المدروسة من العمائر الدينية.**

- جامع صفر بمدينة الجزائر (٩٤١ هـ / ١٥٣٤م)
- الجامع الجديد بمدينة الجزائر(١٠٧٠ هـ / ١٦٦٠م)
- جامع القصبة الخارجي بمدينة الجزائر(١٢٣٤ هـ / ١٨١٨م)
- جامع سوق الغزل بمدينة قسنطينة (١١٤٣ هـ / ١٧٣٠ م)
- الجامع الأخضر بمدينة قسنطينة (١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م)
- جامع سيدي الكتاني بمدينة قسنطينة (١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م)
- جامع الباي بمدينة عنابة (١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م)
- جامع الباشا بمدينة وهران (١٢١٠ هـ / ١٧٩٥ م)
- جامع عين البيضاء بمدينة معسكر(١١٩٥ هـ / ١٧٨٠ م)
- ضريح سيدي عبد الرحمان بمدينة الجزائر (١١٠٨ هـ / ١٦٩٦ م)
- مدرسة خنق النطاح بمدينة وهران (ما بين ١٧٧٩م و ١٧٩٩م)
- مدرسة صالح باي بمدينة قسنطينة (١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م)

٢. **طرق تسجيل تاريخ البناء.**

ومن المعروف أنه مع بداية العهد العثماني شهدت الجزائر حركة عمرانية واسعة النطاق وخاصة في عصر الدايات الذي عرف العديد من الإنشاءات المعمارية وعلى رأسها المساجد التي كانت تتميز كتاباتها عن باقي كتابات المباني المدنية والعسكرية المسجلة باللغة التركية العثمانية، بينما التي تتعلق بالمباني الدينية فقد كانت تسجل نصوصها باللغة العربية فقط، ضف إلى ذلك تلك الصيغ الدينية المتنوعة التي تشتمل عليها نصوصها والتي استعمل في تسجيلها ثلاثة خطوط هامة تتمثل في الخط المغربي في كل من جامع صفر والجامع الكبير بمعسكر وجامع عين البيضاء بنفس المدينة. واستعمل خط النسخ في جامع سيدي الكتاني. وأخيرا خط الثلث الذي استعمل في كل من جامع سوق الغزل والجامع الأخضر وجامع الباي وتجديد جامع صفر.مع الإشارة إلى أن طريقة التأريخ بواسطة حساب الجمل كانت تتم بالطريقتين المشرقية والمغربية وعموما كانت الأولى تصحب استعمال خط الثلث والثانية كانت تصحب استعمال الخط المغربي . وهكذا نجد أن الخطوط الثلاثة من مغربي ونسخ وثلث قد استعملت جنبا إلى جنب في تسجيل تواريخ العمائر الدينية بالجزائر خلال هذا العصر.

٣. **النظام التخطيطي.**

١,٣. تخطيط المساجد.

إن الكثير من المهتمين بعمارة الجزائر الدينية يعتقد أن النظام التخطيطي الذي كان سائدا بالجزائر قبل العصر العثماني والقائم على نظام الأعمدة والدعامات والأساكيب والبلاطات، بقي هو السائد بكثرة أثناء هذا العصر، لكن من خلال الدراسة،

اتضح أن النظام التخطيطي العثماني للمساجد استعمل جنبا إلى جنب مع النظام التخطيطي المحلي. ونجد تقريبا نفس العدد من المساجد الذي صمم بالنظام العثماني هو العدد الذي صممت مساجده وفق الطراز المحلي.

فالأستاذ جورج مارسي يرى بأن العمارة المسجدية بالجزائر خلال العهد العثماني كانت عبارة عن مزيج بين الطراز المحلي والطراز الذي أتي به من تركيا، لذلك نلاحظ أن المساجد تتميز بالتخطيط المحلي الذي كان شائعا عموما، يضاف إليه تخطيط المساجد العثمانية التي تتميز بالقاعة التي تعلوها قبة كبيرة، وهو الطراز الذي تبنته تركيا، وهو الطراز نفسه الذي جاء به الأتراك العثمانيون إلى المغرب.[1]

والملاحظ من خلال النماذج موضوع الدراسة أن المعماري الجزائري لم يستعمل الطرازين مع بعض فقط، بل كان يجمع بين نمط تخطيطي محلي وعناصر معمارية ذات طراز عثماني، مثل جامع سيدي الكتاني الذي بني وفق النظام التخطيطي المحلي والمئذنة المخروطية الرأس التي تميزه، وهي ذات الصلة الوثيقة بمآذن الطراز العثماني المعروف، واستعمل النظام التخطيطي العثماني مطعما بمئذنة مربعة محلية، مثل الجامع الجديد بمدينة الجزائر، كما استعمل النظام التخطيطي العثماني بمئذنة مخروطية مثل جامع الباي بمدينة عنابة مع استعماله أيضا لنظام تخطيطي محلي بمئذنة محلية مثل الجامع الكبير بمدينة معسكر.

وفيما يلي مميزات كل من الطرازين المحلي والعثماني اللذين بنيت مساجد الجزائر وفقهما خلال العصر العثماني:

- الطراز الأول: الطراز المحلي: وهو الطراز التقليدي الذي يقوم فيه بيت الصلاة على الأعمدة والدعامات سواء كان يشتمل على صحن أو يخلو منه، ويغطى بسقف مسطح ومعظم هذا النوع من المساجد متوسط أو صغير الحجم، منتظم التخطيط أو غير منتظم وينتشر في معظم المدن.وعرف بالمغرب الأوسط خلال الفترات التاريخية التي تسبق العصر العثماني نهاية بالعصر المريني.

- الطراز الثاني: الطراز العثماني: وينقسم إلى ثلاثة أنماط:

- مساجد قاعة الصلاة فيها مربعة مغطاة بقبة مركزية قاعدتها مثمنة ورواق يحيط بها من جميع جهاتها مقسم إلى فراغات مربعة غطي كل منها بقبيبة صغيرة.
- مساجد بيوت الصلاة فيها مربعة تغطيها قبة مركزية تقوم على حنيات ركنية.
- مساجد قاعة الصلاة فيها ذات تخطيط متقاطع أحد أضلاعه أكثر امتدادا من الأضلاع الأخرى وغطي الفراغ المربع الكبير بقبة مركزية تحيط بها

[1] Marçais (G) ; L'Art en Algerie, imprimerie Algerienne, Alger, 1906, p.132.

قبيبات صغيرة بينما غطيت الأضلاع الصغرى بأقبية أسطوانية والضلع الكبير بمجموعة من الأقباء الأسطوانية المتتابعة.[٢]

١,١,٣. المساجد ذات التخطيط المحلي.

- **جامع سوق الغزل بمدينة قسنطينة.**

يتخذ بيت الصلاة بجامع سوق الغزل، الشكل المستطيل، ويتميز بمساحته المتوسطة ويبلغ عمقه ١٨,٢٥ م. وعرضه: ٢٤,٥٠ م. وهو يتكون من خمسة أساكيب موازية لجدار القبلة، تشكلها أربع بوائك تتكون من سبعة عقود، ومن سبع بلاطات عمودية على جدار القبلة، أوسعها بلاطة المحراب، ويحد هذه البلاطات بوائك من خمسة عقود، علما أن العقود المستعملة في هذا المسجد، هي من النوع المدبب الذي تختلط فيه الخطوط المنحنية بالخطوط المستقيمة والأعمدة اتخذت حجما ضخما نوعا، وأبدانها من النوع الأملس والأسطواني ويتوسط المحراب جدار القبلة، ويكتنفه من الجانبين زوج من الأعمدة، ويغطي المسجد كله سبعة عشرة قبيبة بما فيها القبة التي تتقدم المحراب، وهناك أجزاء غطيت بأقبية يبلغ عددها خمسة عشرة قبوا، زينت تضليعاتها بالخطوط المستقيمة والمنحنية أيضا على غرار عقود بيت الصلاة، ولهذا الأخير مدخل رئيسي بالجدار الشمالي، ومدخلان آخران بالجدار الغربي.

- **الجامع الأخضر بمدينة قسنطينة.**

يشغل بيت الصلاة بالجامع الأخضر مساحة مستطيلة عمقها: ١٥,٠٨ م، وعرضها: ١٣,٥٧ م. ويتكون من خمسة أساكيب موازية لجدار القبلة تحدها أربع بوائك تتكون من خمسة عقود تحملها أربعة أعمدة وكتفان مدمجان بالجدارين الشرقي والغربي، ويمتد على محور المحراب بلاطة مستعرضة تحدها بائكتان تتكون كل منهما من خمسة عقود تحملها أربعة أعمدة وكتفان أيضا، ويتوسط جدار القبلة محراب مجوف مضلع يكتنفه زوجان من الأعمدة، ويتقدم المحراب قبة قائمة على حنايا ركنية وتليها قبة أخرى على نفس المستوى، ولبيت الصلاة هذا مدخلان بالجدار الشمالي. ومما يلاحظ على هذا المسجد أنه من المساجد المعلقة بمعنى أن بيت الصلاة يوجد بالدور الأول ويتم الصعود إليه بواسطة سلم، علما أن هذا النوع من المساجد المعلقة نجده بجامع سيدي الكتاني بنفس المدينة وهي من المميزات العثمانية التي ميزت عدد من المساجد بالجزائر خلال هذا العصر.

---

[2] عبد العزيز لعرج، « مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر » المؤتمر الخامس لجمعية الآثاريين العرب دراسات في آثار الوطن العربي ٣، الندوة العلمية الرابعة، القاهرة، ٢٠٠٢.ص٥٣٠، ٥٣١.

- **الجامع الكبير بمدينة معسكر.**

تتمثل أبعاد بيت الصلاة بالجامع الكبير بمعسكر في ٢٢,٨٠ م عمقا و ٣٠,٤٠ م عرضا، وهو يقوم على نظام الأعمدة الضخمة المجموعة، ويتكون من خمسة أساكيب ورواق في المؤخر يختلف نوعا ما عن بقية الأساكيب، التي تشكلها خمسة بوائك، تشكلها خمسة عقود من النوع المتجاوز، وست بلاطات عمودية على جدار القبلة، ويتوسط المحراب جدار القبلة وعقد فتحته من النوع الحذوي المتجاوز، وتليه بلاطة مستعرضة تحدها بائكتان تحمل عقودها التي يبلغ عددها، خمسة عقود، مجموعات من الأعمدة، كل مجموعة تتكون من أربعة أعمدة متقاطعة فيما بينها، ما عدا التي في آخر البائكتين فهي ثلاثية، أما باقي المجموعات التي تحمل عقود بيت الصلاة الأخرى فهي ثنائية. ومعظم بيت الصلاة مغطى بسقف من النوع الجمالوني إضافة إلى قبة من الحجم الصغير تتقدم المحراب. أما مدخل المسجد فقد أصبح ضمن الزيادات التي عرفها المسجد في فترات لاحقة بعد العهد العثماني. وتقع المئذنة في الزاوية الشرقية الجنوبية من المسجد، وهي من النوع المربع المسقط.

- **جامع سيدي الكتاني بمدينة قسنطينة .**

يتميز بيت الصلاة بجامع سيدي الكتاني بالمسقط المستطيل أيضا أبعاده ١٥,١٢ م عمقا و ١٨,٦٤ م عرضا، علما أن هذا الجامع يصنف ضمن المساجد المعلقة أيضا، ويتم الصعود إلى بيت الصلاة فيه بواسطة سلم لأن المبنى به دور أرضي استعملت قاعاته لأغراض عدة، ويتوسطه صحن به نافورة من الحجم الكبير، وتحيط به بائكة من عقود نصف دائرية، أما بيت الصلاة فهو يتكون من خمسة أساكيب تشكلها أربع بوائك تتكون من خمسة عقود، تحملها أعمدة رخامية ملساء وممشوقة البدن، أما المحراب الذي يتوسط جدار القبلة وهو من النوع المضلع التجويفة فتليه بلاطة مستعرضة تحدها بائكتان من خمسة عقود أيضا محمولة على أعمدة، وغطيت بقبيبات. أما وسيلة التغطية عموما فتتمثل في سقف خشبي مسطح مشكل من حشوات معشقة وبزخارف بارزة. ولبيت الصلاة هذا خمس مداخل، اثنان منها تفتح مباشرة عليه، والثلاثة الأخرى تتصل بملحقات خاصة بالمسجد.

- **جامع القصبة الخارجي بمدينة الجزائر. مخطط (١)**

يتميز بيت الصلاة بهذا الجامع بصغر حجمه ومقاسات ١٢,٣٧ م عمقا و ١٤,٤٠ م عرضا. وتقوم عقوده على أعمدة يبلغ عددها اثني عشرة عمودا وتقسم بيت الصلاة إلى أربعة أساكيب وخمس بلاطات، ويتوسط جدار القبلة محراب من النوع الذي تأخذ تجويفته الشكل النصف الدائري. ويتم الدخول إلى بيت الصلاة هذه بواسطة مدخلين رئيسيين. وسقفه من النوع المسطح أيضا، ويتميز مخطط المسجد عموما بالبساطة وصغر الحجم. أما المئذنة المثمنة فهي تحتل منتصف الجدار الغربي من المسجد.

٢,١,٣. المساجد ذات التخطيط العثماني.

- المساجد ذات بيت صلاة مربعة تعلوها قبة مركزية وتحيط بها قبيبات.

- **جامع الباشا بمدينة وهران.**

يتميز المدخل الرئيسي بجامع الباشا عن باقي المداخل الأخرى، كونه يحتوي على عناصر زخرفية هامة إضافة إلى أنه يؤدي إلى سقيفة تعلوها قبة محمولة على أربعة عقود مفصصة، ومن هذه السقيفة نصل إلى الصحن الذي يتخذ الشكل النصف الدائري يبلغ قطر نصف دائرته ٢٧,٥ مترا، ويمتد على طول استدارته رواق تقسمه السقيفة المذكورة إلى قسمين، والرواق تشكله بائكة بثمانية عقود تحملها مجموعة من الأعمدة الأسطوانية البدن، ويتم الدخول إلى بيت الصلاة بواسطة مدخل رئيسي آخر فتحته على هيئة عقد نصف دائري ويتخذ بيت الصلاة التخطيط المربع طول الضلع فيه حوالي ٢٨ مترا عمقا و٢٧,٦٥م عرضا.ويتوسطه الجزء المركزي الذي تغطيه قبة مركزية محمولة على ثمان دعامات و ثمانية أزواج من الأعمدة، وتحمل بينها ثمانية عقود حدوية منكسرة أما باقي بيت الصلاة فهو يتألف من سبع بلاطات عمودية على جدار القبلة تحدها ست بوائك في البلاطتين على يمين وعلى يسار القبة المركزية هي تتكون من سبعة عقود أما في البلاطات الثلاثة الوسطى فهي تتوقف عند بداية الجزء المركزي لتتواصل بعد انتهائه في الجهة المقابلة، إضافة إلى سبعة أساكيب تحدها ست بوائك أيضا ولها نفس النظام مع البلاطات العمودية على جدار القبلة. وتناوبت وسيلة التغطية للأروقة الأربعة المحيطة ببيت الصلاة بين الأقبية والقبيبات بحيث غطيت كل مساحة محصورة بين أربعة أعمدة مرة بالقبيبة ومرة بالقبو المتقاطع . ويبلغ عدد الدعامات ببيت الصلاة ستة عشرة دعامة مربعة أما الأعمدة فيبلغ عددها أربعة وعشرين عمودا مزدوجا. ويتوسط جدار القبلة محراب مجوف اتخذت تجويفته المسقط المضلع، وتتقدمه قبيبة كسيت بالبلاطات الخزفية. ونصبت دكة المبلغ في الجهة المقابلة له تحت القبة المركزية أي عند نهاية الجزء المركزي، أما المئذنة المثمنة البدن فهي تحتل الركن الجنوبي من المسجد ولكنها منفصلة عن جدار بيت الصلاة، ويحتوي الجدار الشمالي على باب ثانوي على محور المدخل الرئيسي.

- **جامع عين البيضاء بمدينة معسكر.مخطط (٢)**

يتم الدخول إلى بيت الصلاة بواسطة مدخل واحد، وهو يتوسط الجدار الشرقي من بيت الصلاة الذي يتميز بشكله المربع طول الضلع فيه ١٦,٢٠ مترا. ويتوسطه جزء مركزي تعلوه قبة مركزية، ويحد المربع الذي تقوم عليه هذه الأخيرة مجموعة من العقود الحدوية، التي تحملها مجموعات من الأعمدة بنوعين رباعية توجد في الزوايا ومزدوجة توجد بالأضلاع، وشغلت منطقة الانتقال بحنايا ركنية على هيئة أنصاف أقبية متقاطعة ويتوسط جدار القبلة محراب مضلع، تتقدمه قبة زينت بزخارف جصية قوامها زخرفة التوريق. وغطي وسط كل رواق بقبيبة منخفضة عن المركزية،

وغطي الباقي باثني عشرة قبوا متقاطعا.أما المئذنة فتحتل الركن الجنوبي وهي من النوع المضلع البدن.

- **جامع الباي بمدينة عنابة.**

يتميز جامع الباي بعدم انتظام مخططه العام، ولكن بيت الصلاة فيه من النوع الذي يتميز بالقبة المركزية والمحاطة بقبيبات صغيرة، وهو يتخذ الشكل المستطيل عمقه: ١٢,٦٠ م. وعرضه: ١٤,٤٠ م. وله جزء مركزي تعلوه قبة تقوم على حنايا ركنية، ويحيط بهذا الجزء ثلاثة أروقة واحد منها موازي لجدار القبلة وهو في مؤخر المسجد بينما الرواقان الآخران هما عموديان ويكتنفان الجزء المركزي وتحدهما بائكتان من ثلاثة عقود تحملها دعامة وكتفان وزوج من الأعمدة، أما البائكة الموازية برواق المؤخر فهي تتكون من خمسة عقود يحملها كتفان ودعامتان ومجموعتان من الأعمدة الثلاثية. ويتوسط جدار القبلة محراب مجوف اتخذت تجويفته الشكل المضلع. واعتمدت وسيلة التغطية على ثلاثة أنواع هي: القبة المركزية كبيرة الحجم والقبيبات الصغيرة الحجم والأقبية البرميلية بمؤخر بيت الصلاة. ويتم الدخول إلى الصحن من الباب الرئيسي وهو يتكون من بائكتين مطلتين عليه تتكون كل واحدة منهما من ستة عقود نصف دائرية. أما المئذنة فهي تحتل الركن الشمالي وهي من النوع الأسطواني البدن الرمحي الرأس على غرار المآذن العثمانية.

<u>- المساجد ذات بيت صلاة مربعة تعلوها قبة تحملها حنايا ركنية.</u>

- **جامع صفر بمدينة الجزائر.مخطط (٣)**

يتكون جامع صفر من بيت للصلاة تسبقه ثلاث درجات يتم الصعود بواسطتها إلى مستوى هذا الأخير الذي يبلغ عمقه ١٣,١٠ م وعرضه ١٧,٤٥ م. وهو يتكون من جزء مركزي تعلوه قبة مثمنة محمولة على أربع حنايا ركنية مجوفة، ويحيط بهذا الجزء المركزي ثلاثة أروقة اثنان منها عمودية على جدار القبلة والثالث موازي لهذا الأخير في المؤخر، ويحد هذه الأروقة ثلاثة بوائك تتكون من ثلاثة أعمدة نصف دائرية منكسرة، والرواقان الجانبيان يتميزان بالأعمدة الرخامية بتيجان بورقة الأكنثا وعددها اثنان في كل رواق، أما الرواق المقابل لجدار القبلة فتحده أربعة أعمدة حجرية. وبجدار القبلة يوجد المحراب المجوف الذي تتخذ تجويفته الشكل النصف الدائري، وبالجهة المقابلة ومحوريا على المحراب تقوم دكة المبلغ التي تحملها أعمدة خشبية. ويعلو الأروقة الثلاثة التي تحيط بالجزء المركزي سدة تستند على الأعمدة الرخامية والحجرية وعلى الجدران الثلاثة التي تكون بيت الصلاة، وغطي المسجد بأقبية متقاطعة. ويتم الدخول إلى الصحن الذي تبلغ مقاساته ٥م × ٦,٢٠ م من خلال فتحة معقودة بعقد فارسي وجدت بالجدار الشمالي الغربي، وتؤدي إلى رواق يتقدم الصحن وتشكله بائكة من أربعة عقود نصف دائرية منكسرة طمس أحدها وبقيت ثلاثة منها تقوم على أعمدة حجرية، والملاحظ وجود رواق آخر على اليمين به بائكة من

عقدين لكنها طمست لتصبح حجرة لإمام الجامع، كما وجد رواق آخر بالجهة اليسرى وتتكون بائكته من عقدين أيضا من النوع النصف الدائري المنكسر ويتوسط الصحن ميضأة على هيئة بناء مربع تشكله أربعة عقود مدببة قائمة على دعامات وزين أعلى العقود بشريط من البلاطات الخزفية ويتوسطه حوض مثمن يحتوي على فسقية رخامية. أما المئذنة فهي تحتل الركن الجنوبي الشرقي من المسجد، ويتم الصعود إليها من خلال الباب الموجود بصحن المسجد، وهي مئذنة بقاعدة مربعة لتتحول إلى بدن مثمن الشكل.

- المساجد ذات بيت صلاة متقاطعة المسقط و تعلوها قبة.

- **الجامع الجديد بمدينة الجزائر.مخطط (٤)**

يتميز الجامع الجديد بكبر حجم بيت الصلاة فيه مقارنة بالمساجد الأخرى إذ يبلغ عمقه ٣٩,٩٥ م. وعرضه ٢٥,١٥ م وهو ينقسم إلى ثلاثة أروقة عمودية على جدار القبلة أكبرها أوسطها، وينتهي هذا الرواق عند المحراب الذي يتوسط جدار القبلة، وهو الرواق الذي يضم الجزء المركزي الذي يحمل القبة المركزية التي تقوم على أربعة عقود، ونتج عن ذلك وجود أسكوب موازي لجدار القبلة يفصل بين هذا الأخير وبين الجزء المركزي المذكور. أما الرواقان الجانبيان فيفصل كل منهما عن الرواق الأوسط بائكة من خمسة عقود نصف دائرية تعلو الدعامات المتقاطعة التي يبلغ عددها أربع دعامات الجزء المركزي، والملاحظ أن العقود التي تحمل القبة المركزية هي أكبر حجما من العقود المتبقية. ويتوسط المحراب جدار القبلة، وهو من النوع المجوف المضلع وعدد أضلاعه سبعة، ويكتنفه عمودان رخاميان مدمجان بالجدار.

أما عن طريقة التسقيف فهي كالتالي:

- قبة مركزية تعلو الجزء المركزي.
- أقبية برميلية تغطي الجزء الذي يتقدم القبة المركزية جهة جدار القبلة والجزء الذي يليها نحو مؤخر المسجد حيث يمتد القبو البرميلي لينتهي عند الجدار الشمالي، ونجد الأقبية البرميلية أيضا تكتنف القبة المركزية من الجانبين الشرقي والغربي.
- أربع قباب صغيرة مضلعة إثنتان منها تعلو الجانب الأيمن والأيسر من الأسكوب الذي يلي جدار القبلة، واثنتان تعلو الجزئين الأيمن والأيسر اللذين يتقدمان القبة المركزية بالرواقين الجانبيين.
- أربع قباب مفلطحة تغطي مؤخر الرواقين الجانبيين.

وتتوسط دكة المبلغ الجزء المركزي الذي تعلوه القبة المركزية. وللمسجد باب رئيسي غربي وباب رئيسي شمالي ومجموعة من الأبواب الثانوية، واحد بجانب

الباب الرئيسي الغربي، وبابان آخران بالجدار الشمالي. وتقع المئذنة في الركن الشمالي الشرقي وهي ذات قاعدة مربعة وبدن مربع أيضا.

٢,٣. تخطيط الأضرحة.

استمر إنشاء المدافن المنفصلة في العمارة العثمانية عموما، وبدون أي تغير ملموس عن الأمثلة السابقة فقد استمر المسقط المتعدد الأضلاع، إلا أنه تظهر فيه الاستمرارية والإيقاع في معالجة الواجهات الأربع، مع وضع فتحات معقودة يحيط بكل منها جفت مكونا مستطيلا.[٣]

ومن أكثر التطورات التي ميزت النصف الثاني من القرن الرابع عشر، ظهور الأضرحة ذات السقيفة والمكونة من قبة محمولة فوق أربعة عقود، وكانت هناك في نفس الوقت، أنواع أخرى من الأضرحة ذات الأسقف المخروطية أو الهرمية مبنية وفق الأساليب السلجوقية مثل: ضريح حاجي حمزة في أزنيق، وضريح لاله شاهين باشا في كرماستي، والتي يعود تاريخ بنائها إلى نهاية القرن الرابع عشر، وكذا ضريح أو تربة الأربعين عذراء في المرادية، وتعتبر مقبرة يعقوب جلبي من أول الأضرحة التي تسمى بالأضرحة المفتوحة التي تتكون من أربعة عقود تعلوها قبة. وكان سلاطين آل عثمان حتى أيام محمد الفاتح يدفنون في بورسة ويعتبر ضريح بايزيد الأول هو أول الأضرحة العثمانية الملكية الأصلية [٤]. كما جرت العادة بإقامة أضرحة مقببة في الجوامع التي أسسها السلاطين، وهي بوجه عام ذات صلة كبيرة بالمبنى الديني الملحقة به[٥] بحيث عثر على بعض الأضرحة المقببة ملحقة بالجوامع التي شيدها السلاطين، مثال ذلك الضريح الملحق بالجامع الأخضر ببورصة كذلك شيدت مقبرة السلطان سليمان بجوار مسجده وتغطي جدرانها بلاطات خزفية أيضا.[٦]

وتذكرنا قاعة ضريح سيدي عبد الرحمان بالأضرحة العثمانية التي تقوم قبتها على عقود، وبها فتحات معقودة يحيط بها جفت، مع استعمال أسلوب التكسية بالبلاطات الخزفية في بصفة واسعة جدا وهي من نوع البلاطات الخزفية التركية الأصل. ويعتبر هذا الضريح نموذجا كاملا لأضرحة الجزائر في العهد العثماني.

---

[3] صالح لمعي مصطفى، القباب في العمارة الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص٣٢.

[4] أوقطاي آصلان آبا، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية استانبول، ١٩٨٧، ص٢١٦.

[5] ارنست كونل، الفن الإسلامي، ترجمة: أحمد موسى، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦، ص ١٦٧.

[6] نعمت اسماعيل علام، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص٣٤٩.

- **ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي بمدينة الجزائر. مخطط (٥)**

يتم الدخول إلى ضريح سيدي عبد الرحمان عبر مدخل اتخذت فتحته شكل العقد النصف الدائري، وهو يؤدي إلى سقيفة على يمينها دهليز بالجهة اليمنى منه يفتح مدخل لقاعة خصصت للقيم على الضريح في وقتنا الحالي، وعلى نفس الاتجاه فتحت قاعات أخرى من بينها تلك التي أصبحت مسجدا، ثم يليها مدخل يؤدي إلى سلم صاعد، وفي نهاية هذا الصف نجد مساحة مربعة تبدو وكأنها صحن مسقوف بها بائكة بثلاثة عقود هرمية، حادة الرأس، وتقسمها إلى نصفين، أما في الجهة المقابلة لمدخل قاعة القيم على الضريح نجد مدخلا آخرا يؤدي إلى سقيفة مستطيلة، بجدارها الأيسر المدخل المؤدي إلى قاعة الضريح، وبنفس الجدار أيضا فتحت نافذة تسهل الإتصال بين هذه السقيفة والقاعة المذكورة، وبالجدار الأيمن من نفس السقيفة فتحت مداخل لمرافق أخرى، وبنفس السقيفة دائما يقابلنا في نهايتها مدخل المقبرة التي تحتوي على عدد هام من القبور التي تعود إلى العهد العثماني، أما قاعة الضريح ذاتها، فيتم الدخول إليها عبر مدخل بإطار معقود الفتحة، وهي عبارة عن قاعة يميل مسقطها إلى المربع، عمقها: ٧,١٩ م. وعرضها: ٧,٧٧ م.تعلوها قبة محمولة على أربعة عقود ركنية، إضافة إلى عقد آخر على اليمين زينت به حنية فتحت بأحد أضلاع الجدار الذي تقوم عليه القبة، وبهذه الحنية قبر المسمى ابراهيم باشا بن محمد، أما القبة فقد زينت بفتحات اتخذت شكل الشمسيات المخرمة ، ويحيط بها دربوز من الخشب صنع بأسلوب التعشيق، ونفذت زخارف حشواته بأسلوب الخرط والتخريم، وجد المحراب بالجدار المقابل لمدخل القاعة أي بالجدار الجنوبي الشرقي، هو من النوع المضلع زين جزؤه السفلي ببلاطات خزفية تركية بالغة الجمال، ويتوسط القاعة تابوت الشيخ سيدي عبد الرحمان الثعالبي رحمه الله.

٣,٣. تخطيط المدارس.

يمكن تقسيم مدارس الأناضول إلى مجموعتين متميزتين: المجموعة ذات القباب، والمجموعة ذات الإيوانات، وهما تكشفان نظام التخطيط المعماري والطراز الزخرفي كاستمرار لمراحل التطور، وقامت هذه المجموعة على قاعدة أساسية وهي المحافظة على العناصر الهامة وتأكيد الحيوية التي بدأ بها طراز الفن المعماري التركي، ولم تقتصر وظيفة هذه المدارس على تعليم العلوم الدينية، بل تجاوزت ذلك لتصبح معاهد لتعليم وممارسة الطب إضافة إلى علم الفلك.[٧] وظهر تخطيط النوع الأول من المدارس ونعني بذلك المدارس ذات القبة، بعد تغطية الصحن بالقبة أو القبب، على أن هذا النوع من المدارس التي أقيمت بالأناضول مهدت لظهور تخطيط الجامع العثماني.[٨]

---

[7] أوقطاي آصلان آبا، المرجع السابق، ص٩٥.

[8] نفسه، ص٩٥، ٩٦.

مع وفاة السلطان مراد الثاني، عام ١٤٥١م، دخل تطوير وأسلوب جديد على العمارة العثمانية، تتجلى معالمه في كل أنواع العمائر وليست بالمساجد فقط، فالمدارس والأضرحة والخانات والقيساريات، شهدت جانبا كبيرا من هذا الأسلوب الجديد، فاستبدلت المدارس الضخمة السلجوقية الطراز، بأخرى لها مميزات تجعلها تتلاءم والاحتياجات العلمية والعملية الخاصة بظروف التعليم الجديدة، ففي مدينة بورصة نجد المثل الوحيد لمدرسة بمسجد خداوندكار، ومدرسة بايزيد الأول التي بنيت في بورصة عام ١٤٠٠م نموذجا مبسطا للمدرسة السلجوقية، وهي تتكون من صحن مستطيل تتوزع حوله الخلاوي، والبوائك من جوانبه الأربع، وهي تحتوي على إيوان كبير مقبى، كما تتميز مدرسة يشيل مدرسة، التي أسسها محمد جلبي عام ١٤١٤م، حيث وجدت بها أربع إيوانات خصصت للتدريس، كلها مقببة، كما تميزت بوجود المئذنة التي تعلو المدخل الرئيسي.[9]

ولعل كلا من مدرستي خنق النطاح بمدينة وهران ومدرسة صالح باي بقسنطينة تمثلان نوعا واحدا من المدارس والمتمثل في التخطيط الذي يقوم على قاعة للدرس واسعة وصحن مركزي تحيط به أروقة أو أروقة تطل عليها مجموعة من القاعات الصغيرة الحجم والمرافق الأخرى.

- **مدرسة خنق النطاح بمدينة وهران.**

تتميز هذه المدرسة بالمسقط المستطيل، وبها مدخلان بالجدار الجنوبي، يؤديان إلى رواق تحده بائكة تتكون من خمسة عقود تحملها أربعة أعمدة من النوع الأسطواني البدن يقابله بالجدار الشمالي رواق آخر بنفس تكوين البائكة، وبهذا الجدار أيضا مدخل، موضعه يتوسط مستوى المدخلين المقابلين بالجدار الجنوبي، ويطل على الصحن بالمؤخر ورواق آخر تشكله بائكة من ثلاثة عقود، وفي الجهة المقابلة وهي جهة القبلة، نلاحظ رواقا آخرا يقابل الرواق المذكور، وهو يتقدم القاعة أو بمعنى أصح الإيوان، وذلك على غرار نظام بعض الأواوين التي قد يتقدمها رواق، والبائكة التي تحد هذا الرواق، هي أيضا تتكون من ثلاثة عقود، ويلي هذا الرواق القاعة التي يتم الدخول إليها بواسطة مدخل معقود الفتحة وهي عبارة عن قاعة مربعة طول ضلعها: ٥,٠٦ م وهي مقببة وذات حنايا ركنية، وجدرانها التي تقوم عليها معقودة مع خلوها من المحراب وبالجدار الأيسر مدخل يؤدي إلى قاعة مستطيلة أخرى والتي تتصل بالرواق الشمالي، بواسطة مدخل فتح في نهاية الرواق، وعلى اليمين من القاعة أو الإيوان المذكور، قاعة مربعة أخرى، أصغر حجما، تتقدم المئذنة، متصلة بالرواق الجنوبي بواسطة مدخل فتح في نهاية هذا الرواق، كما فتح مدخل رابع في الجدار الغربي.

---

[9] نفسه، ص١٨٣، ١٨٤.

- **مدرسة صالح باي بمدينة قسنطينة. مخطط (٦)**

يتوسط المدرسة صحن يميل إلى المربع، تحيط به بائكة في كل ضلع من أضلاعه، وتتكون من ثلاثة عقود، تحملها أعمدة مضلعة البدن، وبالجهة الجنوبية الشرقية نجد القاعة الكبرى، أو الإيوان، الذي يعتبر قاعة للتدريس، عمقها: ٦,٤٩ م وعرضها: ٦,٤٤ م وهي تحتوي على محراب مجوف يتوسط جدار القبلة، ويتم الدخول على هذه القاعة من الرواق المطل على الصحن، من خلال مدخل كبير، وهي تذكرنا بقاعة التدريس الواسعة التي تميز مدرسة سيدي أبي مدين بتلمسان والتي تعود إلى العصر المريني. ويكتنف هذه القاعة والصحن رواقان عموديان على جدار المحراب، ويقابل هذه القاعة من الجهة الغربية بعد الصحن، مقبرة صالح باي وأسرته، وترتفع أرضيتها عن مستوى المبنى ب ١,٥٠ م ويحدها عن الصحن درابزين من الرخام، وأخذت هذه المقبرة شكل الإيوان أيضا، بمعنى أنها تتكون من ثلاثة جدران، والجهة الرابعة مفتوحة على الصحن، ويعلو هذه المقبرة قبة تقوم على حنايا ركنية على شكل محارة، ويتم الدخول من الجهة اليسرى إلى قاعة أصغر حجما تضم قبرين آخرين، إضافة إلى القبور الأخرى التي تحتويها المقبرة، ومن الجهة الشرقية يوجد رواق آخر يحد جدار المحراب من الخارج، وهكذا أصبح المبنى عبارة عن قاعة للتدريس أو إيوان القبلة، وصحن، ومقبرة، يحيط بهم جمعا ثلاثة أروقة، فتحت بها مداخل تؤدي إلى سلسلة من القاعات الصغيرة والمرافق، التابعة للمركب، وفي الجهة اليسرى من جدار المحراب، نجد السلم المؤدي إلى الدور الأول حيث توجد قاعة كبرى تعلو قاعة التدريس المذكورة سابقا، وعلى يسارها ويمينها أربع قاعات أخرى.

٤. العناصر المعمارية.

- **المداخل.**

تميزت مداخل المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني بتنوع أطرها، فمنها الرخامية ذات الزخارف المحفورة حفرا غائرا وبارزا والمزينة بزخرفة الصنجات المتناوبة بين اللونين الأبيض والأسود. علما أن هذا النوع من المداخل لم يستعمل إلا مرة واحدة بجامع سيدي الكتاني.علما أنه انتشر استخدام المداخل الرخامية بعمائر الجزائر بمختلف أنواعها خلال العصر العثماني. هذا إضافة إلى المداخل الحجرية التي لم تخل هي الأخرى من الزخارف الجميلة والمتنوعة. وصاحب تنوع المواد التي صنعت بها الأطر تنوع كبير في أشكال المداخل والأعمدة والعضادات التي تكتنفها وعقود المداخل وهي عقود كان أغلبها معروفا بالجزائر قبل مجيء العثمانيين إليها.

واستعملت المداخل ذات الأطر الرخامية بكل من جامع صفر والجامع الجديد الذي تميز بزخارف متنوعة من نباتية وهندسية وكتابية، أما المداخل الحجرية فقد استعملت في كل من جامع عين البيضاء بمعسكر وضريح سيدي محمد بمدينة الجزائر

واستعملت فيها العقود المتجاوزة والمتجاوزة المفصصة.كما يعتبر مدخل جامع الباشا بوهران من أجمل المداخل التي استعملت خلال العهد العثماني، إذ استعملت فيه عدة عناصر معمارية، منها: القبة والشرفات الثلاثية المحمولة على كوابيل صغيرة، مع استعمال العقد المنكسر المتجاوز، وزينت واجهة العقد بالصنجات ، وهي تحتوي على زخارف نباتية من نوع الرقش العربي، وزينت كوشتي العقد بزخارف نباتية تحيط بصرة ركنية. وهناك مدخل آخر اتخذت فتحته هيئة العقد المفصص وبنفس المسجد نجد مدخلا يؤدي إلى بيت الصلاة بإطار جصي زين بزخرفة التوريق، والملاحظ أن العقد والعضادتين زينت بنفس الزخرفة، وهي عناصر زخرفية شاع استعمالها بالمغرب الأوسط قبل الدخول العثماني. **صورة (١) و(٢)**

- **المحاريب.**

استعمل بمحاريب العمائر الدينية نوعان من الحنيات : النوع الأول يتمثل في الحنيات المقوسة التي قد تكون نصف دائرية أو متجاوزة لنصف الدائرة، أو أقل من نصف الدائرة، وذلك في محاريب كل من جامع صفر، وضريح سيدي محمد، وجامع القصبة الخارجي، والجامع الأخضر.أما النوع الثاني من الحنيات فهو ذو الشكل المضلع والتي نجدها بمحاريب كل من الجامع الجديد وضريح سيدي عبد الرحمان وجامع سيدي الكتاني وجامع الباي بعنابة وجامع الباشا بوهران.علما أن هذا النوع من الحنيات استعمل في العصر المرابطي بالجامع الكبير بتلمسان وجامع سيدي أبي الحسن خلال عصر بني عبد الواد ومحراب سيدي أبي مدين الذي يعود إلى العصر المريني.

أما الطاقيات فقد اتخذت أشكالا مختلفة أيضا، فمنها الطاقيات الملساء المستعملة بمحرابي ضريح سيدي محمد وجامع الباي. ومنها الطاقيات التي هي على شكل محارة والمستعملة بمحراب الجامع الأخضر ومحراب مدرسة صالح باي. وهي تذكرنا أيضا بطاقية محراب الجامع الكبير قسنطينة الذي يعود إلى العصر الحمادي.كما استعملت الطاقيات بخطوط متشابكة وذلك بمحرابي جامعي سوق الغزل وسيدي الكتاني.وأخيرا الطاقيات المضلعة: استعملت بمحاريب الجامع الجديد، وضريح سيدي عبد الرحمان وجامع عين البيضاء.

وبالجزء الفاصل بين قسمي التجويفة نلاحظ أن عددا من الخطوط استعملت لتشغل هذا الحيز وهي الخط الفارسي بمحراب جامع سيدي الكتاني وهو خط عرف مع الفن العثماني، بالإضافة إلى الخطوط التي كانت معروفة من قبل والمتمثلة في الخط الكوفي بمحراب جامع سوق الغزل، وخط النسخ الذي زين هذا الجزء بمحراب مدرسة صالح باي، وأخيرا الخط المغربي بالجامع الجديد الذي استعمل جنبا إلى جنب مع بلاطات خزفية تركية الأصل.

واستعمل في تزيين واجهات المحاريب وبعض الأجزاء السفلية من حنياتها الزخارف الجصية التي تشبه إلى حد بعيد في تفاصيلها الزخرفية من أنصاف مراوح

وبراعم وتشبيكات ومعينا تلك التي زينت محاريب عصر المرابطين وبني عبد الواد والمرينيين. واستعملت في تكسية واجهة محراب الجامع الجديد ومحراب جامع عين البيضاء بمعسكر وكذلك حنية محراب جامع سوق الغزل.

بينما زينت معظم الأجزاء السفلية من المحاريب بتكسيات من البلاطات الخزفية، وذلك تأثرا بالتقاليد التركية، والمباني التي زينت الأجزاء السفلية من حنيات محاريبها بالبلاطات الخزفية هي: الجامع الجديد وضريح سيدي عبد الرحمان، والجامع الأخضر، ومدرسة صالح باي، وجامع سيدي الكتاني، والجامع الكبير بمعسكر ،وجامع الباشا، وضريح سيدي محمد وجامع القصبة الخارجي، وجامع الباي.

كما اتخذت عقود الفتحات عدة أشكال منها: النصف دائرية، و الحدوية، والمفصصة والمتجاوزة المنكسرة. صورة (٣) و(٤)

- **الأعمدة.**

تميزت بعض العمائر الدينية بأعمدة مزدوجة وأخرى ثلاثية ورباعية إلى جانب الفردية التي احتوت عليها معظم المنشآت.وقد وجدت هذه الميزة المعمارية في كل من جامع أبي مروان والجامع الكبير بمدينة قسنطينة واللذان يعودان إلى العصر الحمادي. كما تنوعت الأبدان من حيث الشكل، فمنها الأسطوانية، والمثمنة والمركبة. ومن التيجان التي استعملت تلك التي وجدت بضريح سيدي عبد الرحمان، وهي المعروفة بالتيجان ذات الطراز السعدي، كما استعملت تيجان بلفائف جانبية وهو النوع الأكثر استعمالا، وقد استعمل من قبل في جامع القلعة والجامع الكبير بقسنطينة في العصر الحمادي، إضافة إلى تيجان بلفائف جانبية مصحوبة بأوراق وأضيف إليها عنصر على هيئة قلب وهلالين وتيجان تزينها أقنية، كما استعملت تيجان ذات طراز حفصي.صورة (٥)

- **العقود.**

استعملت معظم العقود التي كانت معروفة بالمغرب الأوسط قبل مجي العثمانيين وهي تتمثل في العقود النصف دائرية، والعقود النصف دائرية المتجاوزة، والعقود الحدوية، والعقود المنكسرة، والعقود المفصصة.صورة (٦)

- **المنابر.**

تظهر التأثيرات العثمانية جليا في عنصر المنابر بنوعيها الرخامية والخشبية واحتوت منابر الجزائر خلال العهد العثماني على معظم العناصر المكونة للمنبر عموما ما عدا عنصر واحد وهو المصراعين بالمداخل إذ لم نصادف منبرا واحدا يحتوي على هذا العنصر، فيما عدا ذلك فهي تحتوي على: الريشتين والدرابزين والجزء الذي يحمل القبيبة والقبيبة، هذه الأخيرة التي اتخذت الشكل المخروطي بالمنبرين الرخاميين بكل من جامع سيدي الكتاني وجامع السيدة المحفوظ بالجامع الجديد، وهو الشكل الذي يذكرنا بمآذن العمارة التركية، وهذه الأخيرة لم تقتصر على

المنابر الرخامية فقط، بل نجدها تزين منابر خشبية مثل منبر الجامع الجديد، ومنبر جامع الباشا، الذي انفرد بخاصية أخرى وهي كونه من المنابر المتحركة التي شاع استعمالها ببلاد المغرب، بحيث يجر على دواليب إلى مكانه وقت الخطبة، ثم يجر ثانية إلى الغرفة التي خلفه، والملاحظ أن القبيبة المخروطية لا تعلوه هو بل وضعت في رف يعلو مدخل هذه الغرفة وشكلها ذو طراز عثماني .والملاحظ على المنابر الخشبية أنها شكلت بواسطة حشوات مختلفة الأشكال والمقاسات والزخارف مما يوحي باتصالها بأشكال حشوات منبر الجامع الكبير بمدينة الجزائر.صورة (٧) و(٨)

- **المآذن**

يعتقد بعضٌ من الدارسين أن المئذنة المربعة هي التي غلب استعمالها بالجزائر خلال العهد العثماني، وهي المئذنة المحلية التي تميز كل مباني العصر الاسلامي مثل: مئذنة الجامع الكبير بتلمسان وأغادير وندرومة وسيدي أبي الحسن وسيدي ابراهيم والجامع الكبير بمدينة الجزائر. لكن من خلال الدراسة اتضح أنه وجد بالجزائر في هذا العصر ثلاثة أنواع من المآذن، وهي المربعة التي ميزت الجامع الجديد وضريح سيدي عبد الرحمان، والجامع الكبير بمعسكر، ومدرسة خنق النطاح، والمضلعة التي استعملت في كل من جامع صفر والجامع الأخضر وجامع عين البيضاء وجامع الباشا، والمئذنة المخروطية أو الرمحية الرأس التي ميزت جامعي سيدي الكتاني بقسنطينة وجامع الباي بعنابة. هكذا نستنتج أن المئذنة المضلعة استعملت مثل المربعة إلا أنها أشمل بمعنى أننا نجدها بمنشآت مدن الجزائر، ووهران، وقسنطينة، ومعسكر، واستعملت مدينة الجزائر النوعين، المربعة، والمثمنة، وقسنطينة استعملت فيها المثمنة والأسطوانية المخروطية واستعملت في مدينة وهران المئذنة المثمنة والمربعة، وكذلك بالنسبة لمباني مدينة معسكر وبمدينة عنابة جاءت مئذنة الباي أسطوانية مخروطية.وعرفت واجهات المآذن المثمنة والمربعة تكسيات متنوعة بالبلاطات الخزفية والتي تعتبر امتدادا لتكسية المآذن بالفسيفساء الخزفية في طراز بني عبد الواد بمئذنة المشور والطراز المريني كمئذنتي سيدي أبي مدين وسيدي الحلوي بتلمسان. صورة (٩) و (١٠) و(١١).

- **الشمسيات.**

استعملت مجموعة من الشمسيات الجصية المخرمة بزخارف نباتية وأخرى هندسية، وتشبه إلى حد بعيد الشمسيات التي احتوت على زخارف نباتية وأطباق نجمية بالجامع الكبير قسنطينة وتلك الشمسيات التي تزين مسجد سيدي أبي الحسن بتلمسان.

٥. أساليب وعناصر الزخرفة.

لقد تنوعت الصناعات المستعملة في سبيل زخرفة العمائر الدينية، أهمها: الزخرفة بالتكسية البلاطات الخزفية، والزخارف الجصية.

- **التكسية بالبلاطات الخزفية.**

استعمل هذا الأسلوب في العديد من المساجد مثل: الجامع الجديد، وجامع سوق الغزل وجامع سيدي لخضر، وجامع الباي، أما الأضرحة ففي ضريح سيدي عبد الرحمان كسيت جميع جدران قاعة الضريح بأجمل أنواع البلاطات الخزفية، كما زينت المقبرة الملحقة بمدرسة صالح باي ببلاطات خزفية متنوعة أيضا. ويمكن تقسيم البلاطات الخزفية التي استعملت في تكسية جدران العمائر الدينية إلى ثلاث مجموعات:

- المجموعة المصنوعة بتركيا: تعتبر هذه المجموعة من أحسن الأمثلة من حيث الصناعة والزخرفة، واستعملت بجدران ضريح سيدي عبد الرحمان، وهي تتميز بخصائص فنية وصناعية متماثلة.

- المجموعة المصنوعة بتونس: يتميز هذا النوع من البلاطات باختلافه اختلافا كبيرا عن الأول المستخدم في زخرفة ضريح سيدي عبد الرحمان، ويبدو ذلك الاختلاف في الخصائص الصناعية والأساليب الزخرفية، وتتوزع هذه البلاطات في معظم المنشآت وتزين أجزاء متنوعة من المبنى، بحيث نجدها تزين المحاريب والقباب والمآذن والجدران الداخلية، وازدانت بعض المآذن بهذا النوع من البلاطات مثل مئذنة ضريح سيدي عبد الرحمان، وبعض الأجزاء من جدرانه الداخلية، وجدران جامع سوق الغزل والجامع الأخضر.

- المجموعة المصنوعة بأوروبا: وتتميز هذه البلاطات بالاختلاف فيما بينها اختلافا كبيرا من حيث أساليب الصناعة والزخرفة، كما تختلف مع النوعين السابقين، وزينت بها مئذنة جامع القصبة الخارجي، وحزام يزين أسفل قبة ضريح سيدي عبد الرحمان من الداخل، وجدران وتجويفة محراب الجامع الأخضر.[10]

- **الزخارف الجصية.**

ومن الملاحظ أن الأتراك العثمانيين لم يتخلوا عن هذا الأسلوب في زخرفة الجدران، رغم ولعهم بالتكسية بالبلاطات الخزفية التي ميزت عمائرهم، وكسيت عدة مساحات بالمنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني بهذه الطريقة. لكن تفاصيلها شديدة الصلة بالزخارف الجصية التي ميزت الزخارف الجدارية في عصر المرابطين وبني عبد الواد و المرينيين. واستعمل هذا الأسلوب في الجامع الجديد، وجامع سوق الغزل وجامع سيدي الكتاني، وجامع عين البيضاء.

---

[10] عبد العزيز محمود لعرج، الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي، الطبعة الأولى المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٠، ص٢١ - ١٥٢.

٦. لعناصر الزخرفية.

وظهرت أغلبية العناصر النباتية المعروفة لدى العثمانيين مثل زهرة القرنفل، واللالة والنسرين، والرمان، وعرف الديك، إضافة إلى شجرة السرو، واستمرت المراوح النخيلية وأنصافها والبراعم والثمار التي عرفت بالمغرب الأوسط منذ العصر الحمادي، وصاحبت هذه العناصر النباتية عدة عناصر هندسية تمثلت في المعينات والأطباق النجمية، كما استعملت عناصر معمارية في الزخرفة كالعقود والعميدات، وأخذ عنصر الهلال مكانا بارزا في تزيين واجهات عقود المداخل وبعض التيجان، والزخارف الكتابية التي جمعت بين الخط المغربي والثلث والنسخ والفارسي.

والملاحظ أن عنصر الأزهار قد حظي باستعمال واسع لأن بعضها عرفت شهرة واسعة في تركيا و ذلك في أوقات معينة و انتشرت هذه الشهرة في سائر الأقاليم التابعة للدولة العثمانية ومنها الجزائر، و لعل أهم هذه الأزهار أزهار العسل، أزهار الرمان، أزهار الورد، أزهار القرنفل و اللالة، هذه الأخيرة التي عرفت مكانة خاصة لدى العثمانيين.[11] إضافة إلى زهرة القرنفل التي أحبها الأتراك إلى درجة جعلتهم يمثلونها على الكثير من منتجاتهم الفنية، هذا و لقد استنبتوا منها أنواعا كثيرة، ففي مدينة اسطنبول فقط و في القرن الثامن عشر زرع أكثر من مائتي نوع من هذه الزهرة[12] ، هذا ما يزيد من إبراز أهميتها لديهم.كما استعملت زهرة العسل بأسلوب محوّر عن الطبيعة، حيث نجدها مصاحبة لزهرة القرنفل و المراوح النخيلية.أما زهرة الرمان فقد رسمت بصورة بعيدة عن الطبيعة، كما استعملت زهرة عباد الشمس بنفس الصورة ، و كثيرا ما نجد هذه الصورة ممثلة على تحف زخارفها رسمت بأسلوب الباروك، و كذلك رسمت زهرة عرف الديك بطريقة محورة أيضا، كما وجدت زهرة الورد التي استعملت في كثير من الأحيان، و مما يمكن ملاحظته هو وجود كل هذه الأزهار مرفوقة بزخارف أخرى، وقلما نجدها منفردة.

كما ركز الأتراك كثيرا على استعمال شجرة السرو و أشجار الدوم و النخيل. فشجرة السرو هي من بين الأشجار التي تزرع في الجبانات، و ذلك قصد قضائها على الروائح الكريهة وهم يولون مكانة خاصة لهذه الشجرة نظرا لما تمتاز به عن باقي الأشجار من صفات، فهي حسب اعتقادهم رمز للخلود و ذلك لدوام خضرة أوراقها طوال فصول السنة الأربعة، و بهذا فهي تعبر عن الحياة المتجددة و الخالدة، و لهذا أكثر الفنانون من استعمال هذا العنصر في زخارفهم الخاصة بالأماكن المقدسة مثل المحاريب و الميضآت كما رسمت على سجاجيد الصلاة.أما شجرة الدّوم فترسم لدى الأتراك على هيئة الشجرة السابقة و قد أحنت الرياح قمتها. واستعملت شجرة السرو

---

[11] سعاد محمد ماهر، الخزف التركي، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية، ١٩٧٧، ص ٧٢.

[12] نفسه، ص ٧٥.

في زخرفة شمسيات بعض المباني الدينية بالجزائر بالإضافة إلى بعض الصناعات الفنية الأخرى كالبلاطات الخزفية. كما شكلت الأوراق عنصرا أساسيا في التركيبات الزخرفية بالمباني الدينية، وعلى مختلف المواد المستعملة في الصناعات الفنية، ووردت على هيئة أوراق بسيطة أو مفصصة أو مسننة أو ثلاثية الفصوص.

في نهاية هذا العرض، يمكننا أن نستخلص من خلال ما هو متوفر لدينا من معلومات ومعالم بأن العمارة الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني كانت عبارة عن مزيج في منتهى التناسق بين طرازين مختلفين كل الاختلاف بحكم الإطار التاريخي والجغرافي لكل منهما، ويتمثلان في الطراز المحلي الذي كان سائدا في المغرب الأوسط خلال العصور الإسلامية، وطراز أدخله العثمانيون على الجزائر بمجيئهم إليها، ومن خلال هذه النماذج من العمائر الدينية تم التوصل إلى العديد من النقاط التي تميز كل عنصر محليا كان أو عثمانيا. إلا أن ذلك التدمير والتشويه لهذه المباني خلال الاستعمار الفرنسي كان له الدور الأساسي في فقدان بعض الحلقات في الطراز المعماري والفني لهذا النوع من المنشآت بالجزائر خلال العصر العثماني.

قائمة المراجع:

- ارنست كونل، الفن الإسلامي، ترجمة: أحمد موسى، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦.
- أوقطاي آصلان آبا، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية استانبول، ١٩٨٧.

سعاد محمد ماهر، الخزف التركي، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية، ١٩٧٧.

- صالح لمعي مصطفى، القباب في العمارة الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- عبد العزيز لعرج، « مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر » المؤتمر الخامس لجمعية الآثاريين العرب، دراسات في آثار الوطن العربي ٣، الندوة العلمية الرابعة، القاهرة، ٢٠٠٢.
- عبد العزيز لعرج، الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي، الطبعة الأولى المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٠.
- معروف بلحاج، المساجد ذات القباب المركزية بالجزائر خلال العهد العثماني، رسالة ماجستير جامعة اسطنبول.
- نعمت اسماعيل علام، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، الطبعة الثالثة دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢.
- Dokali (R) ; Les mosquées de la periode turque à Alger, SNED, Alger 1974.

- Marçais (G) ; L'Art en Algerie, Imprimerie Algerienne, Alger, 1906.

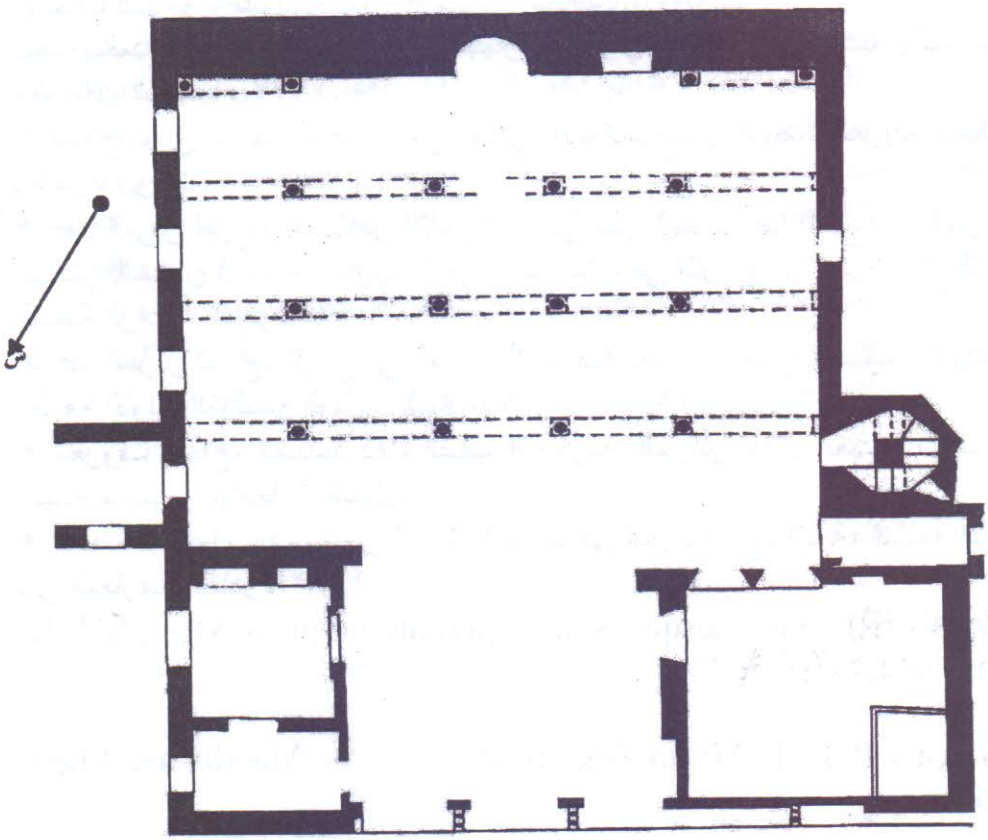

مخطط (١) جامع القصبة الخارجي بمدينة الجزائر (نموذج للطراز المحلي)

(عن رشيد دوكالي – بتصرف)

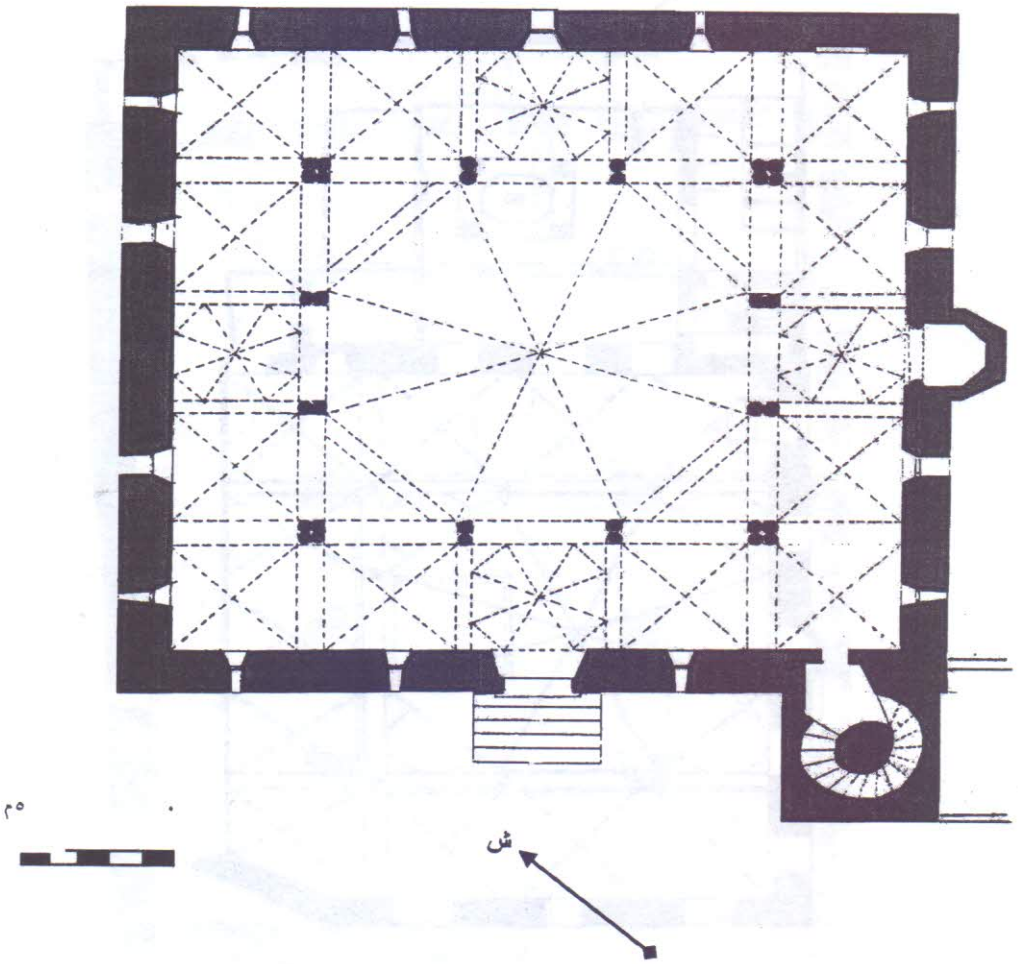

مخطط (٢) جامع عين البيضاء بمعسكر
- نموذج لبيت الصلاة المربعة بقبة مركزية محاطة بقبيبات -
(عن معروف بلحاج- بتصرف)

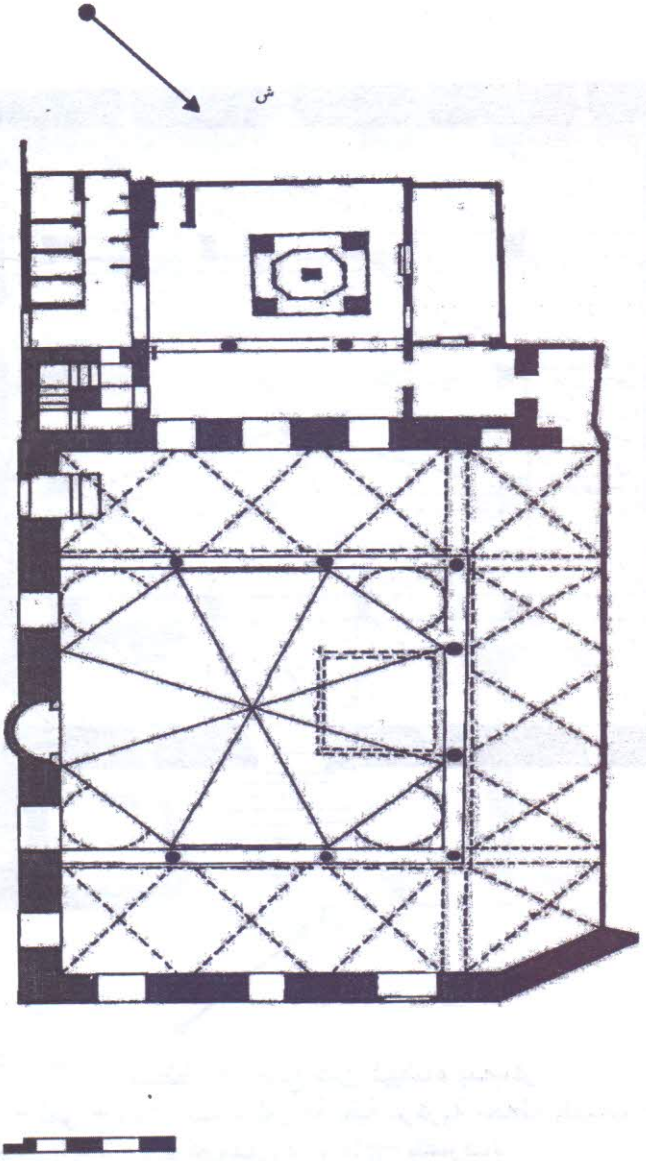

مخطط (٣) جامع صفر
- نموذج لبيت الصلاة المربعة تعلوها قبة تحملها حنايا ركنية-
(عن رشيد دوكالي - بتصرف)

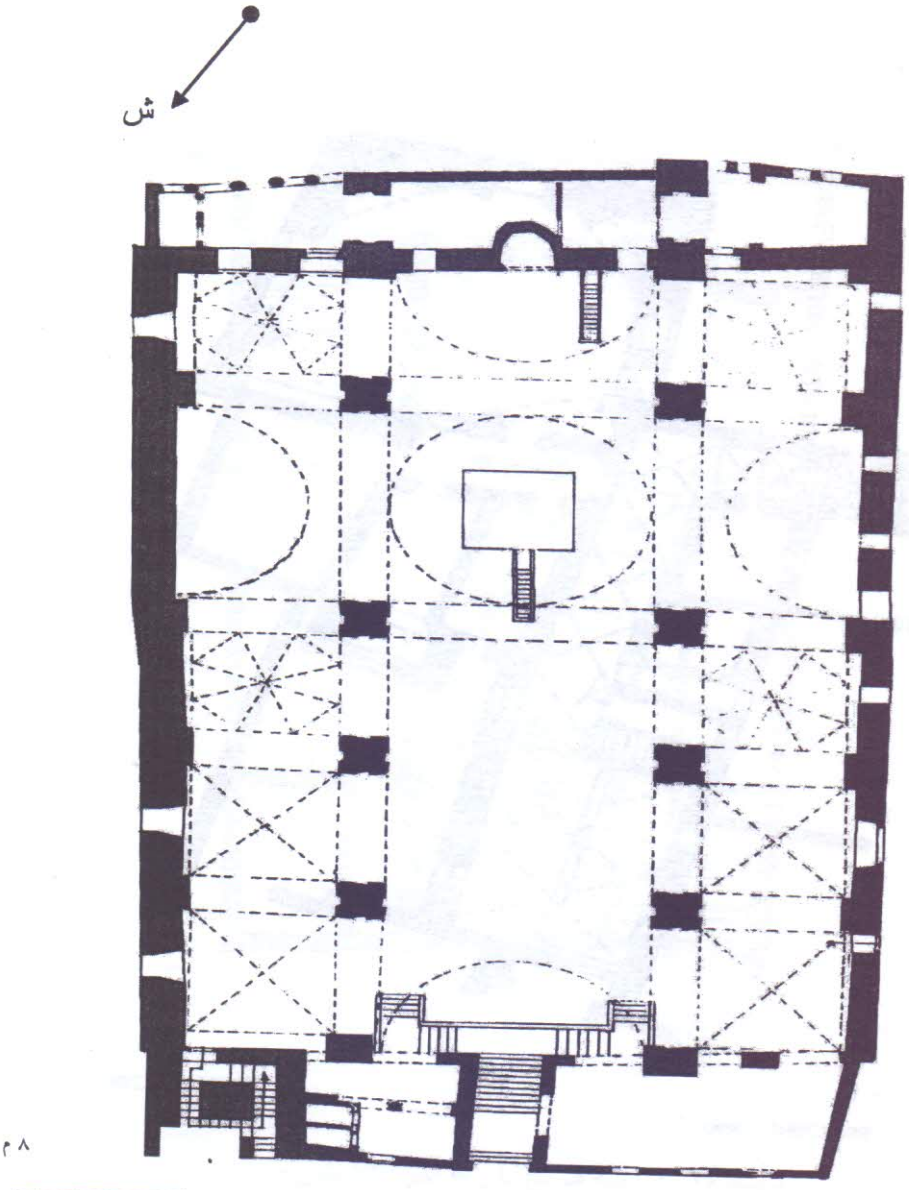

مخطط (٤) الجامع الجديد
- نموذج لبيت الصلاة المتقاطعة وتعلوها قبة -
(عن معروف بلحاج - بتصرف)

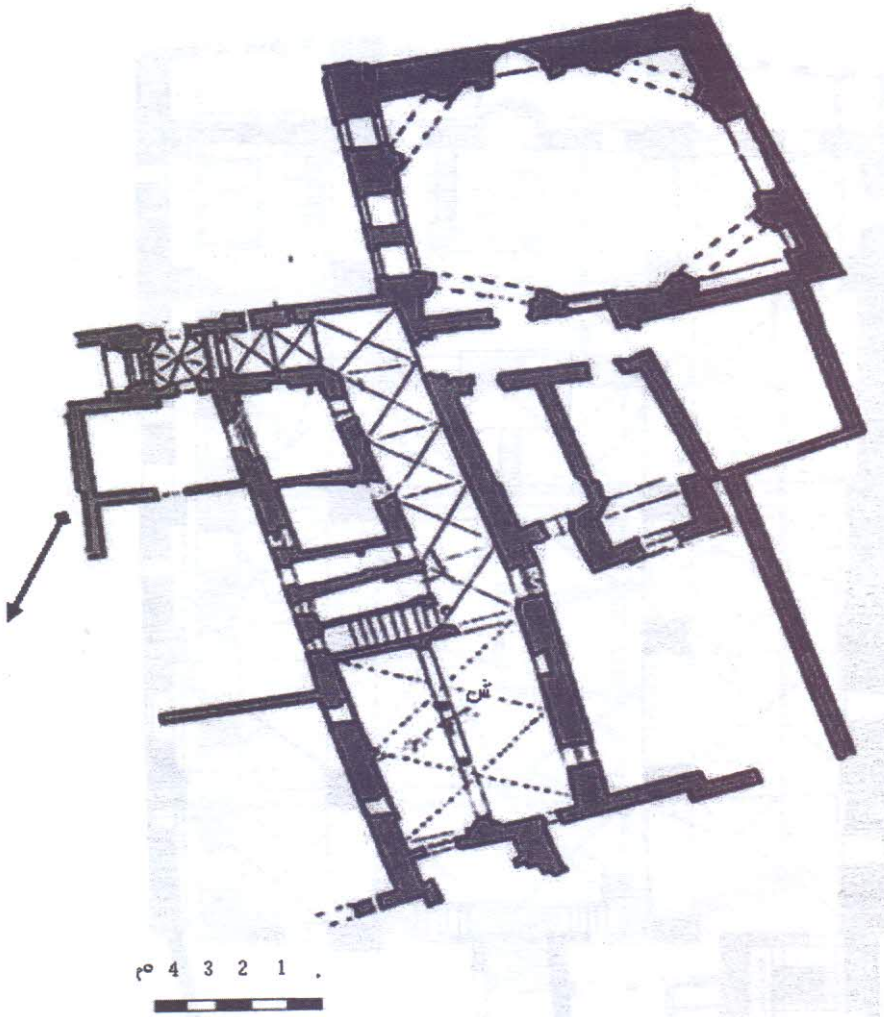

مخطط (٥) ضريح سيدي عبد الرحمان
- نموذج لتخطيط الأضرحة -
(عن محفوظات الوكالة الوطنية للآثار - بتصرف)

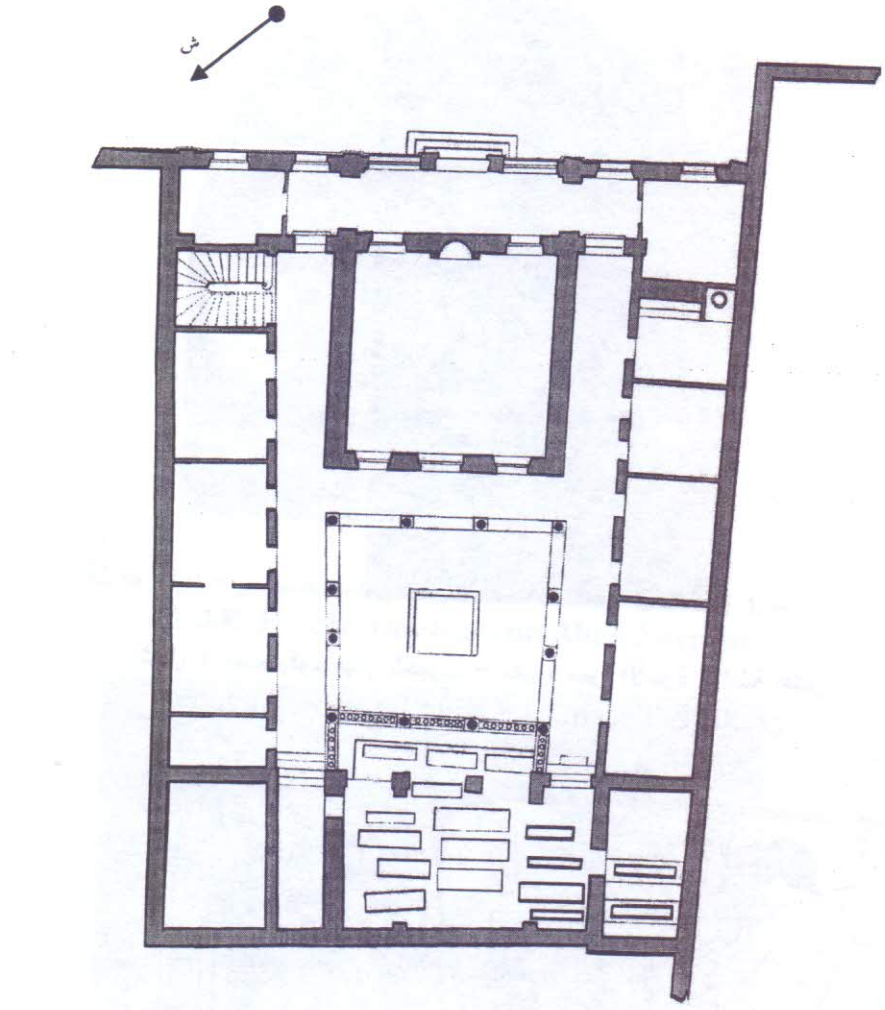

مخطط (٦) مدرسة صالح باي – الدور الأرضي–
– نموذج لتخطيط المدارس –
(عن محفوظات الوكالة الوطنية للآثار – بتصرف)

شكل ١ غلام يقوم ببذر الحبوب – مقبرة مس الأسرة الثامنة عشر
نقلاً عن : E. Feucht, Des Kind im Alten Ägypten

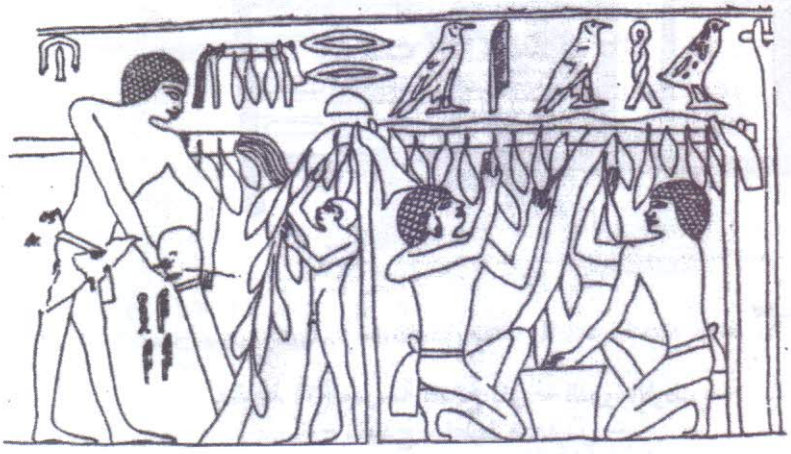

شكل ٢ غلام يقوم بجمع العنب – مقبرة بتاح حتب بسقارة الأسرة الخامسة.
نقلاً عن : E. Feucht, Des Kind im Alten Ägypten

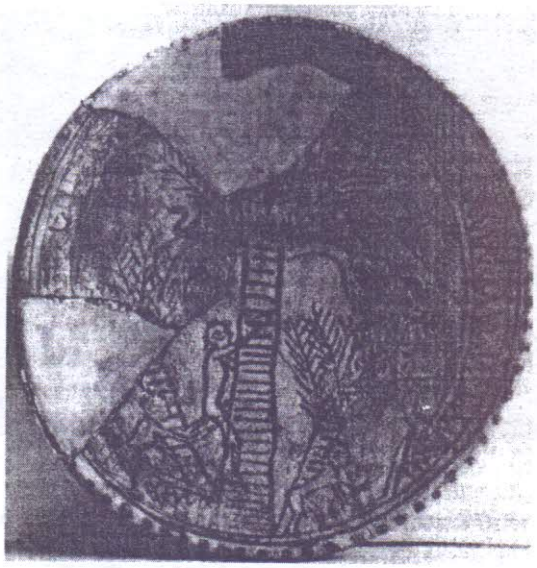

شكل ٣ غلامان يقومان بجمع البلح- متحف مانشستر – دولة حديثة
نقلاً عن : E. Feucht, Des Kind im Alten Ägypten

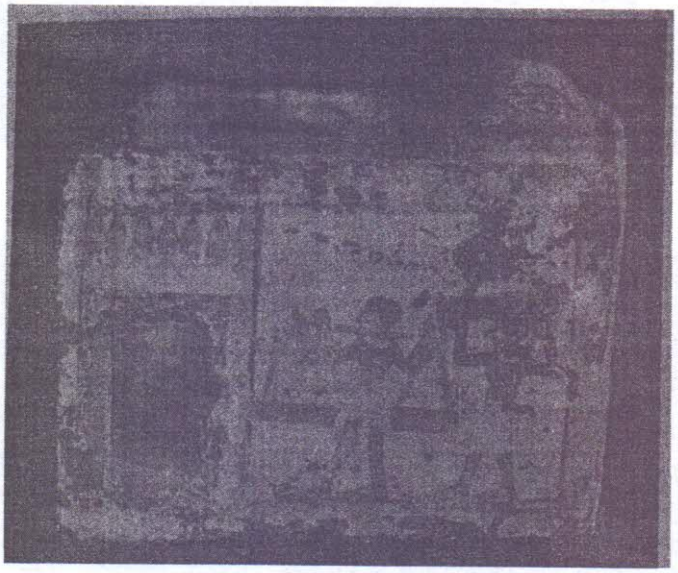

شكل ٤ أ

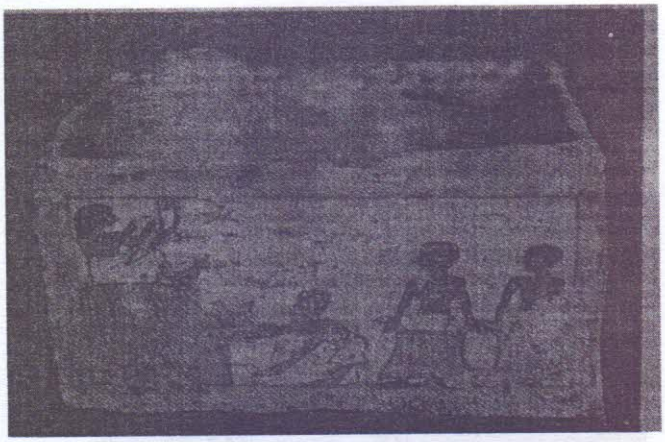

شكل ٤ ب

نقلاً عن : A.M.Blackman, A Painted Porttery model of a granaty

شكل ٥ أ

شكل ٥ ب

غلام يقوم بحمل النبات والحبال، وآخر يقوم بشد الحبال – مقبرة بتاح وأخت حتب – الأسرة الخامسة بسقارة

نقلاً عن : E. Feucht, Des Kind im Alten Ägypten